إلى اكتشاف تراثنا

المدرسة
فى عصر الفراعنة

النص ل: كريستيان لوبلان

Le kuttâb est encore très présent en Égypte, notamment dans les villes et villages du Sud. On y entre entre 3 et 5 ans. Les écoliers y apprennent à écrire, à lire et à mémoriser le Coran. [Exemples de kuttâb © Début du XX^{e} siècle].

حتـى يومنـا هذا، لا يـزال "الكُتابْ" قائماً فى أنحاء القـرى والنجوع المصرية وخاصة فى الصـعيد حيـث يدخل الطفل فـى عمر الخامسـة أو أحيانـاً الثالثة ليتعلـم القراءة والكتابـة وحفظ القرآن.

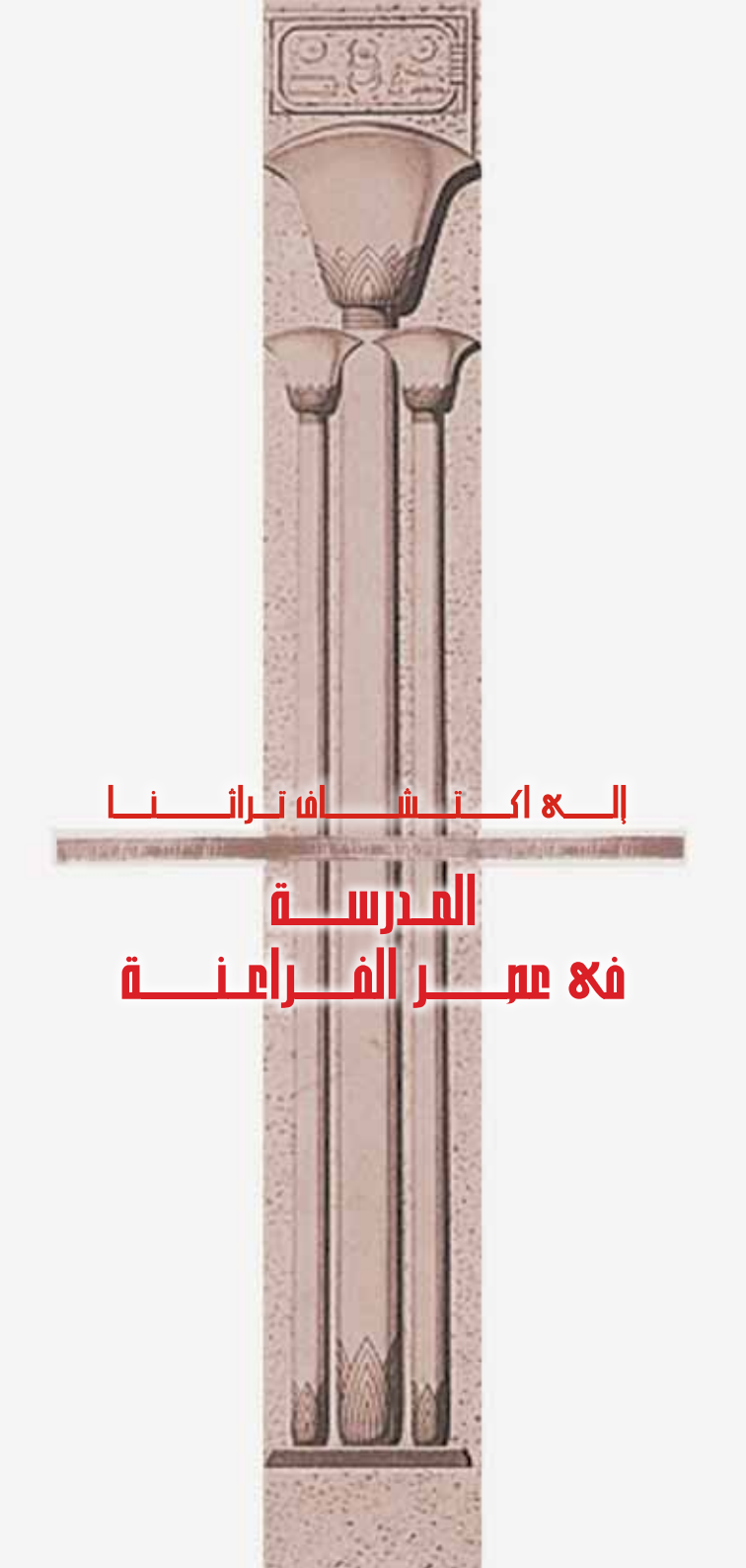

إلى اكتشاف تراثنا

المدرسة
في عصر الفراعنة

شئ من التاريخ

"بيت الحياة" هكذا كانت تسمى المدرسة فى العصر الفرعوني وقد كانت هذه المدارس فى غالبيتها ملحقة بالمعابد والقصور وكذلك الحرملك وجرت العادة أن يكون "بيت الحياة" حكراً على الأطفال الذين يؤهلون لمهنة "الكاتب".

ودعني أذكرك عزيزي القارئ أنه على عكس أيامنا المعاصرة لم تكن المدرسة متاحة أمام الجميع، ففى الدولة الحديثة – أى فى القرن السادس عشر قبل الميلاد – على سبيل المثال ، كان هناك ٥٪ فقط من الشعب يعرف الكتابة والقراءة وكانوا غالبيتهم من أولاد الذوات وطبقة الموظفون العليا وكذلك الكهنة.

وكان المتميزون فى "بيت الحياة" غالباً ما يتجهون فيما بعد إلى دراسات متخصصة وتخصصات دقيقة بهدف الدفع بهم فيما بعد للعمل فى العاصمة والمدن الرئيسية على ضفاف النيل.

وجدير بالذكر أنه فى إطار هذه المراكز الدراسية (أى المدرسة بلغة اليوم) كان التعليم لا يقتصر فقط على المواد الفلسفية التى تعتمد على الذهن بل كان أيضاً يشتمل التأهيل المهني والدراسات الفنية والطبية والمعمارية وكذلك علوم الرياضة والفلك والترجمة.

أما العلوم الدينية، فكان يكرس لها إهتمام خاص وكانت تدرس على يد كبار الدين والكهنة بهدف الإعداد الجيد لمن سيقوموا لاحقاً بالإشراف على الطقوس الدينية بمختلف عقائدها وإقامتها بالشكل اللائق حيث أن "المعرفة" فى مصر القديمة كانت حكراً على طبقة الكهنة.

هيا بنا إلى المدرسة ...

بالرغم من عدم وجود إشارات واضحة فى سجلات التاريخ المصري عن توقيت إلتزام الطفل بالحياة الدراسية إلا أن ما ورثناه من هذا العصر الفرعوني الذي إمتد على مدار خمسة ألاف عام يؤكد أن الطفل كان يتوجه إلى "بيت الحياة" عند بلوغه عامه الخامس أو السادس تقريباً وهي السن التى يبدأ فيها إرتداء ما يغطي عورته من لباس أبيض وذلك بلفه حزام حول خصره إستعداداً لهذه المرحلة الجديدة فى

حياته وقد قام العالم الفرنسي بيير مونتيه فى كتابة الشهير (الحياة اليومية فى مصر فى عصر الرعامسة، ص ٢٤٧) بشرح وتوضيح هذه التحولات الإجتماعية فى مصر القديمة بشكل واف وكاف.

وجدير بالذكر أن الكاتب فى "بيت الحياة" كان يقع على عاتقه مسؤلية تعليم الأطفال ومتابعة تطورهم فى المرحلة التعليمية ومحاولة مواءمة مهاراتهم مع التخصصات التى تتماشى مع كفاءتهم وكانت الحلقات الدراسية تقام فى الهواء الطلق مما يذكرنا بما يحدث فى الكُتاب بالريف المصري حتى وقتنا هذا.

كانت "بيت الحياة" حينئذ تتميز بالحزم والصرامة مما لا يمنع تكريم النابغين، وإعطاءهم فرص التألق والتميز.

مدرسة فى معبد "الرمسيوم"

فى السنوات الأخيرة، وفى إطار الأبحاث وعمليات التنقيب التى تمت فى الأنحاء المختلفة لمعبد الفرعون رمسيس الثاني بمعبد الرمسيوم -غرب طيبة- إستطاع علماء الآثار أن يعثروا على أطلال مدرسة قديمة مازالت تحتفظ ببقايا هيكلها، وقد كانت هذه المدرسة مبنية من الطوب اللبن على مساحة تقارب الـ ٧٠٠ م^{٢} تقع فى الجزء الجنوبي الشرقي للحقات المعبد وقد وجد فيها عدد كبير من شأفات الفخار المتناثرة هنا وهناك والتى كانت غالباً ما يستخدمها التلاميذ

كـ"مسودة" لتمارين الكتابة والرسم التى كانوا يتدربوا عليها مع أساتذهم.

أما عن التكوين الداخلي للمدرسة أى "بيت الحياة" فكانت على ما يبدو -عزيزي القارئ- تتكون من العديد من القاعات الصغيرة المتجاورة وكذلك بعض الأتيليهات حيث تعليم فنون النحت وبجوارها أيضا باكية عريضة، كان يتجمع فيها التلاميذ لتلقي الدروس النظرية.

ونستطيع أيضاً إطلاق عنان خيالنا لنرى هذه الباكية وهي مزودة بمظلة لحماية الأطفال من أشعة شمس طيبة الحارقة حينما تشتد أثناء النهار. ونتخيلها أيضا متصلة بمساحة كبيرة حيث يلعب ويلهو بها التلاميذ أثناء أوقات راحتهم.

ورغم أن هناك بقايا "بيت الحياة" قد وجدت على أطلال مدينة تل العمارنة إلا أن "بيت الحياة" التابع لمعبد الرمسيوم يعتبر المثل الأوحد لهذا النمط من المراكز الدراسية حتى الآن والذي يعكس الوضع الذي كانت عليه تلك المدارس فى العصر الفرعوني بالنسبة لتفاصيلها الهيكلية وهيئتها وتخطيطها الداخلي الذي يرجع للقرن الثالث عشر قبل الميلاد.

علمتنا صفحات التاريخ المصري أن بعض هذه المدارس فى العصور الفرعونية كانت تابعة مباشرة لإدارة تعرف بـ"تاج الحريم" وهي هياكل دراسية تستقبل التلاميذ الأجانب من أولاد ملوك آسيا وافريقيا بجانب أولاد كبار موظفي البلاط الملكي المصري وعندما تنتهي فترة دراسة هؤلاء الأجانب يكونوا قد تشبعوا بالثقافة المصرية ودرجة عالية من تفاعلهم معها بحيث أن هناك الكثير منهم قرروا إكمال حياتهم على ارض مصر.

وليتك تعرف عزيزي القارئ أن هناك مجموعة ثمينة من الوثائق قد أثرت معرفتنا تجاه هؤلاء الأجانب اللذين تتلمذوا فى مصر وتلقوا قدر كافٍ من الدراسة والمعرفة ونبغوا فيما تعلموه حتى تدرجوا فى دولاب البلاط الملكي وبلغوا أرفع المناصب به مثلهم كمثل المصريين أنفسهم.

تعلم القراءة والكتابة وأيضاً .. الحساب

الكتابة والقراءة والحساب كانوا أهم المواد التعليمية التى كان يتلقاها الدارس فى "بيت الحياة"، خاصة وأن كان يريد أن يمتهن فى المستقبل مهنة "كاتب".

فكان هذا الطفل المصري يحمل كتابة وقلمه الذي كان عبارة عن ريشة يغمسها فى الأحبار ذات الألوان المختلفة ليكتب أرقام عمليات الجمع الحسابية أو الحروف والكلمات المنطوقة فى التراتيل الدينية سواء كانت للإله أو الفرعون وبذلك الأسلوب فى التدريس كان التلميذ يتكيف بيسر وسهولة مع مفردات اللغة وكذلك قواعد النحو ومبادئ الفنون.

أما عن أساسيات التعليم فى مصر القديمة فكانت تعتمد على الإملاء وتعليم الآداب والحكم المجتمعية كتعاليم "بتاح حوتب" وتعاليم "خيتي" وأوردة عبادة نهر النيل التى تبغي وتحث على احترامه وتبجيله كالتى جاءت فى تعاليم الملك أمنمحات الأول لأبنه.

وكان الهدف من هذه التعاليم والمواعظ هو إرساء قواعد مجتمعية سليمة وصحيحة تحمل مبادئ إحترام الآخر وتبجيل الإله خالق الكون.

أثناء الفترة التعليمية التى كانت تمتد حوالي عشر سنوات كان الطالب يتعلم فنون كتابة الهيروغليفية ويتعلم إتقان الحروف تحسباً لليوم الذي سيصل فيه إلى مرتبة "الكاتب" ويكون فى واجباته كتابة بردية لسيده أو نقش جدران على أحد المعابد أو المقابر، وبجانب هذه المواد التعليمة كانت هناك أساسيات الرياضيات والهندسة التى تساعدهم على توجهاتهم المستقبلية وأثناء فترته الدراسية فى "بيت الحياة"، كان الطالب يخوض إختبارات تسمح بتحديد مستواه وإمكانياته الدراسية.

هيا معى نتعلم الرسم والنحت

كان الرسـم والنحـت من المواد التكميليـة التى كانت تدرس فـى "بيت الحياة" لاسيما أنها كانت لا تقل أهمية عن الأخريات غير أنها كانت مرتبطة بشكل وثيق بـ "ورش العمـل" اليدويـة.

ولعـل من أهـم مميزات تلـك المواد الفنية هي كشـف مواهب الأطفال فى سن مبكرة وتوجيههـم إلى مهنة "الكاتب الرسام" أو "الكاتـب النحات" ومن هنا كان تفسير استعمالات العديدة لشأفات الحجر وكسر الرخام والأحجار الصلدة التى وجدت فـى الحفائر التـى كشفت فـى الآونة الأخيرة عـن بعض هـذه الشأفات التـى تظهـر فيهـا الرسومـات البدائيـة التـى تعكـس يـد الأطفـال بما فيهم مـن "متدربـين ماهريين ماهر" يبشرون بمستقبل فنان متميز.

كان التلاميـذ يحملـون فى يدهـم اليسري "باليـت" الألـوان الزاخـرة بالمساحيـق اللونيـة المختلفـة وريشته فى اليـد اليمني إستعـداداً لتنفيذ الموضـوع الذي أعلن عنه أستاذه.

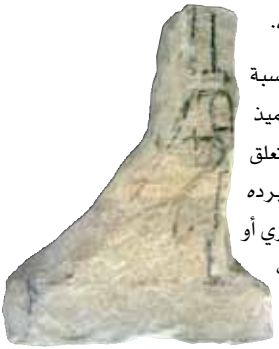

أما بالنسبة لفن النحـت فـكان التلميذ يستخدم أدوات تكميلية حسبما كان عمله متعلق بتمثال أو جدارية فها هو مقصه الصغير ومبرده النحاسي الـذي ينقش به على الحجر الجيري أو غيره من الأحجـار المختلفة تنفيذاً لتعلميات الأستاذ.

كان وقت اللهو و اللعب ...

وبعد ساعات طويلة من التركيز والعمل والإجتهاد، كان من حسن الحظ هناك برهة من الزمن يقررها الأستاذ للإسترخاء وهو ما يعادل فى مصر المعاصرة "الفسحة" وكان الأطفال بطبيعة الحال ينتظرون هذه الأوقات للإنطلاق واللعب واللهو وكانت هناك ألعاب متميزة ومعروفة كان يمكن ممارستها فى الساحة المفتوحة المتصلة بالقاعات الدراسية فعلى سبيل المثال، كان هناك ألعاب أكروباتية وتمارين مصارعة وألعاب قفز، وفى الألعاب المشهورة فى العصور الفرعونية لعبة "الشخشيخة" أو "البلّ".

وقد كشفت عمليات التنقيب فى الجزء الخاص بالمدرسة فى معبد الرمسيوم عن مجموعات من "البلّ" المصنوعة من أحجار صلدة تتراوح ما بين خمس وتسع قطع وجدير بالذكر أن هذه اللعبة أى لعبة "البلّ" عبرت الزمان وتعرف الآن فى أرجاء مدينة طيبة تحت اسم "باواوا" أو لعبة الـ"عل" وهي تعتمد على تحكم الطفل فى رمي البلّ إلى أعلى ثم الإمساك به وتحريكه إلى مساحة أخرى بسرعة وإتقان وقد تتشابه هذه اللعبة مع لعبات معاصرة فى الريف الأوروبي.

مهنة الكاتب

قال الحكيم "خيتي" فى وهو يمدح ويبجل مهنة الكاتب :
"أنظر وتأمل .. فليس هناك بمهنة تخلو من مراقب إلا مهنة الكاتب فهو سيد عمله فإن عرفت الكتابة فستسير الأمور من حولك"

إن مهنة "الكاتب" كانت تعتبر من أرقى وأرفع المهن فى مصر القديمة وكانت تسمح لمن يسعده الحظ ويمتهنها، مستقبل باهر فى مجال إدارة البلاط الملكي أو إدارة الأوقاف التابعة للقصر أو حتى وظائف الدولة العليا فى مجال الإقتصاد والقضاء أو التدرج فى الوظائف الكهنوتية للوصول إلى أعلى المراتب بالمعبد كـ"كاهن أكبر".

وبما أن "الكاتب" كان شخصاً لا غنى عنه فى وظائف الدولاب الإداري الملكي، فكان ذلك يكفل له حياة كريمة ومؤَمَّنة له ولعائلته وأولاده الذين غالباً ما كانوا يلتحقون بـ "ببيت الحياة" وتورث لهم هذه المهنة الرفيعة.

الإله جيحوتى رب الكتابة فى مصر القديمة وأقدم كاتب فى التاريخ.

© (٢٠١٥) إعداد النص : كريستيان لوبلان (CNRS)
الترجمة للعربية: چيهان زكي (CNRS)
حقوق التصوير: كريستيان لوبلان، يان رانتيه، چان كلود كيون، فيليب مارتينيز ، البان بريس بامبو، جيمدو، فرانكو جياني/CEFB، (LL)، ماكتلاند وليشتسترن وهارارى.

تم نشر هذا الكتيب الموجه لتلاميذ المدارس بدعم من:
بنك قطر الوطني الأهلي، جمعية الحفاظ على الرامسيوم.
برنتوجراف - أسامة خيرى - جمهورية مصر العربية
يوزع مجاناً